



الحمد لله وصلى الله على سيدنا محمد وآلـه وصحبه، أما بعد فقد قرأت بعض الشكوك والاعتراضات التي ترد على ثورة أهل الشام من قبل بعض من ينتمي إلى العلم وأكثر ذلك لا يحتاج إلى رد لأنـه شبه ومغالطات، ولكن التذكير واجب وقد رأيت أن أجيب هنا بما ورد من كلام الله تعالى في القرآن الكريم من بيان.

ورأس هذه الشكوك والأوهام الشكوى من القتل والتدمير وعدم توفر الطعام والشراب أي شدائد الحرب، وأن هذه الشدائد تسقط واجب الجهاد وأن القتال لا يجوز لما يؤدى إليه من قتل وخراب.

وهذه الشكوى هي الوهن الذي فسره النبي عليه الصلاة في الحديث عن ثوبان - رضي الله تعالى عنه - في سنن أبي داود بأنه حب الحياة وكراهة الموت.

وقد نهى الله تعالى عنه أول شيء إذ قال سبحانه: {ولا تهنووا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين إن يمسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام نداولها بين الناس}.

قال البغوي: "هذا حث لأصحاب النبي -صلى الله عليه وسلم- على الجهاد زيادة على ما أصابهم من القتل والجرح يوم أحد.

يقول الله تعالى: {ولا تهنووا} أي لا تضعفوا ولا تجبنوا عن جهاد أعدائكم بما [أي بسبب ما] نالكم من القتل والجرح، وكان قد قتل يومئذ من المهاجرين خمسة منهم حمزة بن عبد المطلب ومصعب بن عمير وقتل من الأنصار سبعون رجلاً.
وروى الطبرى عن الزهرى فى سبب نزول هذه الآية ما يشبه أحوال الناس اليوم. قال: كثر فى أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم القتل والجرح حتى خلص إلى كل امرئ منهم البأس فأنزل الله عز وجل القرآن فآسى فيه المؤمنين بأحسن ما آسى به
قوماً من المسلمين كانوا قيلهم من الأمم الماضية فقال: {ولا تهنووا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين}.

ما يصيب المسلمين من بلاء وما ينزل بالعامة وقت الجهاد وأيام الحرب من شدة قد أجاب الله تعالى عنه في عدة مواضع من القرآن الكريم، منها الآية السابقة، ومن ذلك قول الله تعالى في آية أخرى: {كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله لا يعلم وأنتم لا تعلمون}.

قال ابن كثير: {وهو كره لكم} أي شديد عليكم مشقة وهو كذلك فإنه إما أن يُقتل أو يجرح مع مشقة السفر ومجالدة الأعداء. ثم قال تعالى: {وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم} أي لأن القتال يعقبه النصر والظفر على الأعداء". وقال الطاهر ابن عاشر في التحرير والتنوير: "فالقتال كريه للنفوس لأنه يحول بين المقاتل وطماننته ولذاته ونومه وطعامه وأهله وبنته، ويلجئ الإنسان إلى عداوة من كان صاحبه، ويعرضه لخطر الهلاك أو ألم الجراح. ولكن فيه دفع المذلة الحاصلة من غلبة الرجال واستضعافهم". وهو لعمري جوهر ما كان ينادي به عامة الناس "الموت ولا المذلة". وبذل الأنفس وذهب الأموال في الحرب لاشك أنه دون هدم الدين ولذلك شرع jihad صيانة للدين مع كل ما في jihad من التعرض للموت ومقاساة الأهوال.

وقد جاء هذا الميزان بين حق الإيمان وحرمة الوقت في القرآن الكريم إذ يقول تبارك وتعالى: {يسألونك عن الشهر الحرام قتالٍ فيه قتل قتالٌ فيه كبير وصَدٌ عن سبيل الله وكفرٌ به والمسجد الحرام وإخراجُ أهله منه أكبر عن الله والفتنة أكبر من القتل}.

وكان معنى الآية يتنزل فيما نحن فيه: يسألون عن بلاد الشام أيجوز هذا القتال الذي يجري فيها؟ والجواب: قل نعم يجوز، ويجوز أن يتسع وبكثير إلى أن يحصل المقصود ويتحقق الدفع، لأن صد المجرمين عن سبيل الله تعالى أكبر، وأن كفر النصيريين أكبر، وأن قتل الأبرياء وإخراج الناس وتعذيب الأسرى أكبر. والفتنة عن الدين بالحرب على الإسلام والحكم بغير ما أنزل الله والاستهزء بالدين أكبر عند الله.

وفي قوله تعالى بعد ذلك: {ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا} إشارة إلى أن دفع ذلك لا يكون بغير الحرب والقتال لأن الكفار لا يزالون يحاولون ولن يفتوا يعملون على أن يردوا الناس عن الدين ويصدوا عن سبيل الله، وقوله تعالى {ولايزالون} يفيد الاستمرار والتجدد.

وهذا جواب كل من يظن أن نظام الأسد كان يتوقع أن يصلح وأن الأمل بالتغيير من خلال الحوار كان ممكنا وأن حمل الثوار للسلاح قد فوت ذلك، لأن النظام لن ينقطع عن الحرب على أهل السنة، وهو مفوض بذلك من الدول الكبرى منذ أربعين عاما.

هذا سوى أن حمل الناس للسلاح إنما كان من باب الضرورة لدفع الصيال وحماية الأنفس. ولكنه تطور بعد ذلك إلى حرب على لاستئصال النظام والقضاء على هذه الفئة المحاربة لله ولرسوله.

ومثل هذا الميزان بين المصالح والمفاسد تجد الإشارة إليه أيضا في قول الله تعالى في آية سورة البقرة: {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين} وفي آية سورة الحج {ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لهدمت صوامع وبيع وصلوات ومساجد يذكر فيها اسم الله كثيرا}.

روى الطبرى عن مجاهد في تفسيرها: "ولولا دفاع الله بالبر عن الفاجر وببقية أخلاف الناس بعضهم عن بعض لهلك أهلهما" أما أن الحرب تقود إلى مزيد من القتل فهذا شأن الحروب إلى أن تضع أوزارها، وقد فيما قال زهير بن أبي سلمى قبل الإسلام في وصف الحرب من معلقته:

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذَقْتُمْ *** وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمَرْجَحُ
مَتَى تَبَعُّهُنَا بَعْثُوْهَا ذَمِيْمَة *** وَتَضَرُّ إِذَا ضَرَبْتُمُوهَا فَتَضَرُّ

والفرق اليوم بين الجاهلية الإسلام أن الحرب اليوم jihad في سبيل الله وهو فرض من فرائض الإسلام فيه نصرة الدين ورضوان رب العالمين.

وفي القرآن الكريم وصف لأحوال المسلمين وقت غزوة الخندق وما لاقوه من شدائده وذلك في قوله تعالى في سورة فصلات:

{إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفلَ منكم وإذ زاغت الأ بصارُ وبلغت القلوبُ الحناجرَ وتنطون بالله الظنونا * هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزاً شديداً}. قال البغوي: أي عند ذلك اختبر المؤمنون بالحصر والقتال ليتبين المخلص من المنافق. قوله سبحانه: {من فوقكم} إشارة إلى الأحزاب ، قوله: {ومن أسفل منكم} إشارة إلى بنى قريظة. وهذا مشابه لأحوال أهل الشام اليوم إذ جاءت الأحزاب من قوات الأسد من فوق وجاءت قوات الشيعة من لبنان والعراق.

وقوله تعالى: {وتطنون بالله الظنونا} قال الحسن البصري كما في تفسير ابن كثير: ظنون مختلفة ظن المنافقون أن محمدا وأصحابه يُستأصلون"

في القرآن دواء لكل مرض، وشفاء لكل علة، ونفع لكل غلة، وجواب لكل سائل، ورد على كل معرض، وإفحام لكل مجادل. وقد أغنانا الله تعالى عن كل من يثبت بعد أن قتل من قتل من الأبرياء وهم ما هدم من بيوت الله.

ونحمد الله أن هؤلاء المثبطين لم ينضموا إلى الثورة ، وهذا أيضا في القرآن الكريم إذ يقول سبحانه عن المنافقين الذين تخلفوا وقعدوا عن الجهاد في سبيل الله: {لو خرجنَا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلا خَبَالًا وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ} وَخَبَالًا: أي اضطرابا في الرأي وفسادا في العمل وضعفا في القتال وضعفا في النظام كما في تفسير المنار. {وَفِيكُمْ سَمَاعُونَ لَهُمْ} أي وفيكم أناس من ضعفاء الإيمان أو ضعاف العزم والعقل يكترون الاستماع لأولئك لما عندهم من الاستعداد لقبول وسوسوتهم.

وكيف نقرأ قول الله تعالى في سورة آل عمران: {وَلَيَعْلَمَ الَّذِينَ نَافَقُوا وَقَيْلَ لَهُمْ تَعَالَوْا فَاتَّلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ ادْفَعُوا قَالُوا لَوْ نَعْلَمْ قَتَالًا لَاتَّبَعْنَاكُمْ هُمُ الْكُفَّارُ يُومَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِإِيمَانِهِمْ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِمْ مَا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ}.

قال الإمام الرازي في تفسير قوله تعالى: {لو نعلم قتالاً لاتبعناكم}: "فيه وجهان:

الأول أن يكون المراد أن الفريقين لا يقتتلان البتة فلهذا رجعنا.

الثاني: أن يكون المعنى: لو نعلم ما يصلح أن يسمى قتالاً لاتبعناكم ، يعني أن الذي يقدمون عليه لا يقال له قتال وإنما هو إلقاء النفس في التهلكة لأن رأي عبد الله [ابن سلول] كان في الإقامة بالمدينة وما كان يستتصوب الخروج.

قال الرازي: "واعلم أنه إن كان المراد من هذا الكلام هو الوجه الأول فهو فاسد وذلك لأن الظن في أحوال الدنيا قائم مقام العلم وأمارات حصول القتال كانت ظاهرة في ذلك اليوم".

وكيف نقرأ قول الله تعالى في سورة النساء: {وَمَا لَكُمْ لَا تَقْاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعِفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ} الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك ولينا واجعل لنا من لدنك نصيرنا.

قال الرازي: اعلم أن المراد إنكاره تعالى لتركهم القتال فصار ذلك توكيدا لما تقدم من الأمر بالجهاد وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قوله {وَمَا لَكُمْ لَا تَقْاتِلُونَ} يدل على أن الجهاد واجب ومعناه أنه لا عذر لكم في ترك المقاتلة وقد بلغ حال المستضعفين من الرجال والنساء والولدان من المسلمين إلى ما يبلغ في الضعف.

فهذا حث شديد على القتال، وبيان العلة التي لها صار القتال واجبا وهو ما في القتال من تخليص هؤلاء المؤمنين من أيدي الكفرة لأن هذا الجمع إلى الجهاد يجري مجرى فكاك الأسير".

وختام الجواب لكل من يشك في الثورة أو يثبّط في الجهاد قول الله تعالى في سورة العنكبوت: {وَمَنْ جَاهَ فَإِنَّمَا يُجَاهَ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيَ عَنِ الْعَالَمِينَ}.

ولكل مجاهد يبذل نفسه في سبيل الله تعالى ويعاني شدة الجهاد وأحوال الحرب نقدم قول الله تعالى في سورة التوبه: {ذلك بأنهم لا يصيّبهم ظلماً ولا نصباً ولا مخصصة في سبيل الله ولا يطؤن موطنها يغطي الكفار ولا ينالون من عدو نيلا إلا كتب لهم به عمل صالح إن الله لا يُضيع أجرَ المحسنين * ولا ينفقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ولا يقطعون واديا إلا كتب لهم ليجزيهم أحسنَ ما كانوا يعملون}.

